

الصنعة المعجمية، من النظر إلى ما بعد عين الخليل

Lexical craftsmanship, from theorizing to beyond Ayen al-Khalil

د. عبد الجليل منصور

المدرسة العليا للأساتذة - مستغانم - الجزائر

النحو العربي وأصوله

khalifam.09@hotmail.com

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٦/١٤ النشر: ٢٠٢٤/٠٦/١٨

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٢/١٠

ملخص:

من تأمل الخليل - رحمه الله - ثم أمعن النظر في كتابه العين، أدرك أن صنعة المعجم قد أسندت ظهرها إلى جملة من الفنون حتى أسست بنيتها ورفعت أركانها، وبدت واضحة المعالم أول إسفارها، وعادة العلم أن يخطو أول سيره متعثرا، متثاقلا، خطوة الصبي أول عهده بالمشي، والغرض وضع مادة تجمع كلام العرب لا تسقط منه شيئا. أما الغرض، فلا أنبل منه، وأما الواضع، فلا أعلم منه، وأما السبيل والطريقة، فميدان رحب للخلاف والنقاش، إذ كيف يُعقل لفن واحد - ولو كان عريضا معتمدا على جملة من الفنون - أن يصير مآرزا لمفردات العربية، تأررُ إليه بقضها وقضيضها، لا تشرذ منها لفظة واحدة.

الكلمات المفتاحية: صنعة، معجمية، تنظير، الخليل، مادة، معاني.

Abstract :

Whoever contemplates Al-Khalil - may God have mercy on him - and then looks closely at his book Al-Ain, will realize that the craft of dictionary has leaned its back on a number of arts until it established its structure and raised its pillars, and it became clearly defined at the beginning of its journey. Science is accustomed to take its first step stumbling and plodding, like the first step of a child. He promised him to walk, and the purpose was to create material that gathered together the words of the Arabs and did not omit anything from it. As for the purpose, there is nothing nobler than it, and as for the originator, I do not know better than him, and as for the path and method, it is a wide field for disagreement and discussion, because how can it be possible for one art - even if it is broad and dependent on a group of arts - to become an anchor for the Arabic vocabulary, to be attached to it with its parts and its parts, not One word escaped from her.

KeyWords: Workmanship, lexicography, theory, Hebron, material, meanings.

المقدمة:

إنّ الصنعة المعجميّة غاية صناعات اللّغة ومُنْتهاها؛ إذ هي الجامع فنون اللّغة دون استثناء، فالمعجم ميدان الصوت، والصرف، والتّركيب والدلالة، ولا يكون ذلك إلّا للمُعجم، ولعلّ هذا الثقل الذي يتحمّله جعله آخر ما تجود به قريحة رجلٍ فدّ كالخليل، ثمّ لما جادت به جاء غير واضح المعالم، دون تقديم يسلك بالقارئ شِعابه، هذا ما يفيضُ بنا إلى إشكال يدور حول الصنعة المعجميّة الثرائيّة: أكانت ذات محطّات مدروسة تبدأ من النظريّة حتّى تصل إلى التطبيق الناضج عابرة كلّ المراحل بينهما بسلاسة؟ أم غلبت عليها العشوائيّة؟ ثمّ كيف لرجلٍ كالخليل أن يضبطَ معجمًا ذهنيًا لا يزال قائمًا فيضبّه في معجم مؤلّف؟ هل تأخّر فضاع أقلّ اللّغة؟ أم تسرّع فضاع أكثرها؟

I. المعجم والقاموس لغة واصطلاحاً:

قد يبدو الأمر ترفاً لغوياً عند من يعتقدون الترادف في اللغة العربية، وأما من يفرقون بين جِلّ المعاني ودِقِّها، فلا بد من وقفة على الخيط الرفيع بين المعنيين.

١. **المعجم والقاموس لغة:** ذكر صاحب اللسان أن مادة المعجم مصدر عند المبرد بمنزلة الإعجام، وأما المعنى عند ابن منظور، فهو من جعل النقط على الحروف لإزالة عُجمتها، وتقول كتاب معجم فإن تعجيمه تنقيطه لكي تستبين عُجمته وتصح (الإفريقي، ٢٠٠٣).

وأما صاحب القاموس، فقال: "أعجم فلان الكتاب نقطه" (الفيروزآبادي، د ت).

وأما القاموس والقَوْمُسُ فقعر البحر (الإفريقي، ٢٠٠٣)، ويشهد له حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "... إن ملكاً موكل بقاموس البحر..." (حنبل، ٢٠٠١)، والقومس الأمير ومعظم ماء البحر كالقاموس (الفيروزآبادي، د ت).

٢. **المعجم والقاموس اصطلاحاً:** إذا اضطررنا اللغة إلى التفريق بين اللفظين، فقد يضطرنا الاصطلاح إلى الجمع بينهما؛ إذ المعجم هو قائمة بمفردات اللغة أو مورفيمات، أو بتعبير بلومفيلد: هو المخزون الكلي لمورفيمات اللغة (الدائم، ٢٠٠٦)، هذه جهة الجمع.

أما التفريق، فيرى عباس الصوري أن القاموس مصطلح للدلالة على كل كتاب أو تأليف له هدف تربوي وثقافي، ويجمع بين دفتيه قائمة من الوحدات المعجمية (المدخل) التي تحقق وجودها بالفعل في لسان من الألسنة، ويخضعها لترتيب وشرح معين، ويقابله في الفرنسية كلمة (Dictionnaire) أما مصطلح معجم، فهو للدلالة على المجموع المفترض واللامحدود من الوحدات المعجمية التي تمتلكها جماعة لغوية معينة بكامل أفرادها بفعل القدرة التوليدية الهائلة للغة، ويقابله في الفرنسية (lexique) (الصوري، ١٩٩٨)، ثم يسوق تفريقاً للفاسي الفهري، رأيت أن أذكره كذلك في هذا المقام، وذلك قوله عن القاموس: إنه الصناعة التي تتوق إلى حصر لائحة المفردات ومعانيها، أما المعجم فهو المخزون المفرداتي الذي يمثل جزءاً من قدرة المتكلم المستمع اللغوية (الصوري، ١٩٩٨). فمن تأمل هذا التفريق بين المصطلحين، يجد أنه لا يأوي إلى ركن علمي شديد، بل إن قيامه إنما هو على الاقتراح من المفترق أولاً، ثم انطلاق المفروق من لغة أعجمية، أما في تراثنا فإن المعجم والقاموس، وكتاب الألفاظ، والمحيط، والعباب، والزاهر... إنما مدار الفرق بينها المحتوى لا سواه، أو ذلك الفرق اللغوي الذي أشرنا إليه أولاً، ثم إن تفريق الدكتورين عباس والفاسي الفهري ومن لفّ لفهما إنما هو تفريق أسماء ومسميات، فلو أعطينا للمعجم ما للقاموس وللقاموس ما للمعجم لما ارتبك اللفظان، ولا اضطرب المعنيان، والرأي عندي أن لا تفرق بينهما إلا بالنظر في المحتوى والصناعة.

وقد يجرنا ما ذكرت إلى الحديث عن أنواع المعاجم، وليس هذا مقامها، وخلاصة ما ذكرت أن الفرق بين المعجم والقاموس فرق لغوي لا اصطلاحى، وإنما يكون فرقا اصطلاحيا في لغة غير العربية.

II. صناعة المعجم من النظر إلى العين:

إن جملة من المعجميين المتأخرين يرون أن العمل المعجمي لم يُؤسس على نظرية البتة، بل هو عمل تطبيقي محض؛ وحجتهم في ذلك أعمال المعجميين القدماء، فهم صنعوا المعاجم دونما تنظير لها؛ فهذا كتاب العين لا مقدمة له تشرح منهجه، وتُجمل تفاصيله، وتدلل ما يواجهه الناظر فيه من صعابه، وتدله دلالة الحُرَيْت بين وديانه وشعابه، ولا تُقعد لعمل صاحبه أو تؤسس له، وهذه الكتب من بعده كذلك تتبع سننه حذوة القدة بالقدة.

وتفصيل الكلام في هذه المسألة يجعلنا بين أمرين اثنين:

أولهما أن نشير إلى الصناعة المعجمية القائمة على جمع المادة اللغوية التي تمثل جسد هذا الفن، وهذا الجمع لا يحتاج إلى عميق نظر، أو إلى تفكير ممتد، بل قيامه وقطب الرحى فيه السماع والنقل، فمتى انتهت إلى سمع الواضع لفظة أو كلمة من مأمون على لسانه أو نقله، وأدرك معناها، جاز له أن يضعها في مؤلفه ذاك، فالصناعة المعجمية ليس لها ذاك العمق الذي للصناعة النحوية مثلا، فغاية ما فيها جمع المادة، ثم تبويبها، وترتيب مداخلها ترتيبا يسهل على المشتغل العمل بها، والإفادة منها.

وثانيها أن هذه الصناعة كانت غاية الصناعات الأخرى كما كان التفسير غاية المشتغلين بعلوم الشريعة، وعلى الباحث عن التنظير لها إلا يتأمل المقدمات المجترأة، أو التي لم يكتبها أصحاب الكتب ابتداءً، وأنا أقصد مقدمة العين؛ إذ ليس الخليل واضعها، وإنما هي وصف لصنعتة رحمه الله في كتابه ذاك ممن ورث علمه ككل الفنون التي خاض فيها.

ولقد مهدت أن الخليل اعتمد في وضع كتابه العين على جملة من الفنون لعل رأسها علم التصريف، والذي لم يُفرد بالتأليف إلا بعد الخليل بما يُقارب القرن من الزمان مع أبي عثمان المازني (٢٤٧ هـ) في كتابه التصريف (جني، المصنف، ١٩٩٩)، وقد اعتمد الخليل في كتابه العين طريقته المعروفة في قلب الأصول لإنشاء فروع أخرى، والتي اعتمدها في علم العروض فأنشأ الدوائر العروضية التي استنبط منها بحور الشعر بطريقته المشار إليها.

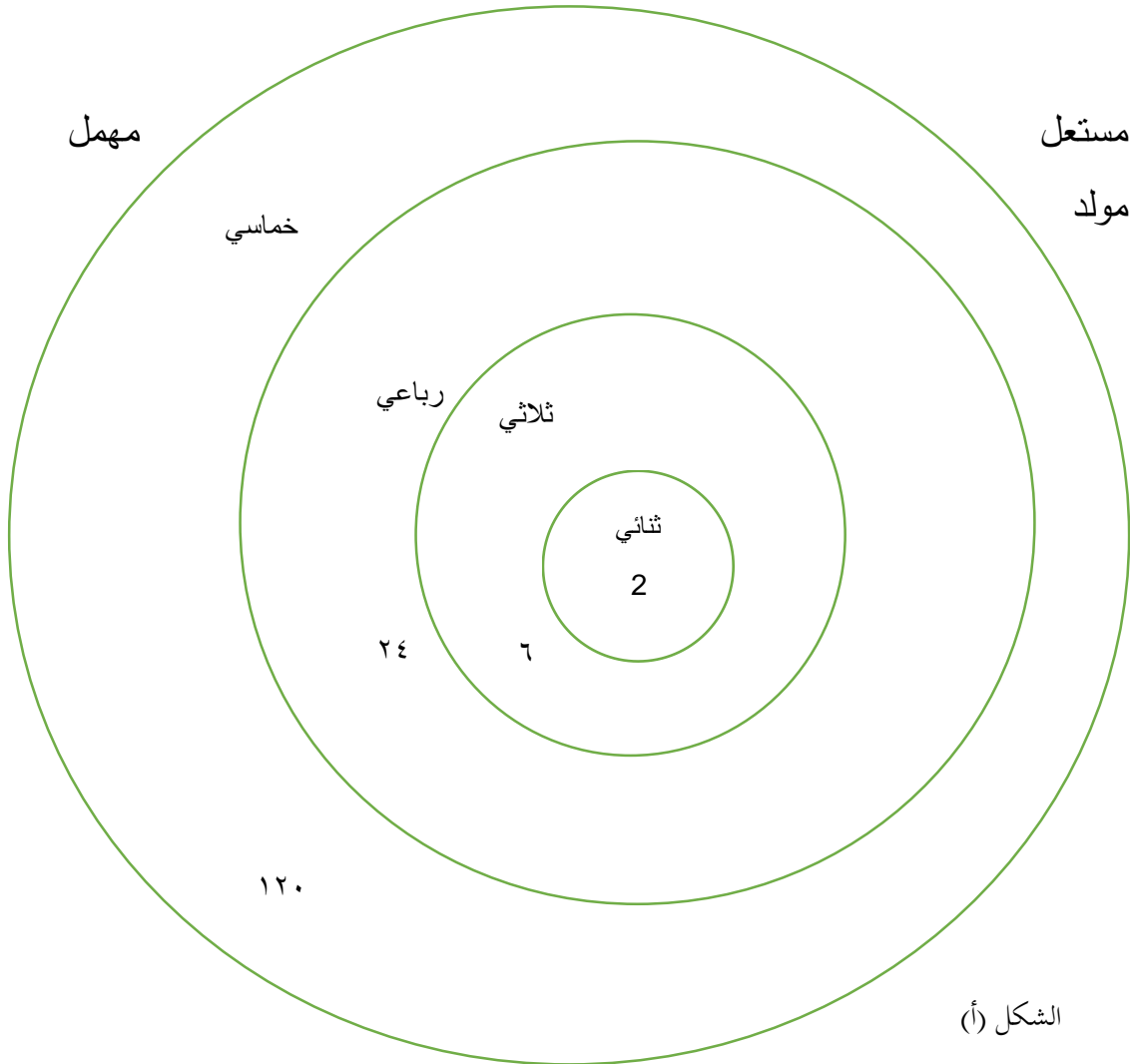
فالخليل رحمه الله واضح جدا أنه لم يصنع المعجم اعتباطا، بل وضع له أسسا ومقدمات لم تبلغنا في كتابه هو، ولكن لو بحثنا في كتاب سيبويه مثلا، أو في آرائه المبثوثة في كتب النحو لوجدنا ما يشفي العليل ويظفي الغليل. وخلاصة هذا المبحث أن المعجمية العربية قد مرت بمرحلة التنظير عند الخليل (مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د ت)، يمكن تصورها وتصور ما اعتمدت عليه كالاتي:

- النظام الصرفي للغة العربية، وقد نظر فيه الخليل إلى قيام الألفاظ العربية على أصول لا تأتي دونها ولا

تتعداها، ثم نظر إلى ما يُزاد على هذه الأصول.

- الاشتقاق.

- البعد الصوتي، وقد نظر إلى هذا البعد من جهتين: جهة تقليب الأصول لحصر الألفاظ، وجهة اعتماد الأصوات مداخل لترتيب معجمه.
- ثم جمع المادة اللغوية والنظر في معانيها؛ إذ المعاني والدلالة هي الركن الذي بُني لأجله المعجم في كل لغة، بله اللغة العربية.
- ثم تطبيق هذا الذي ذكرناه مجملا في كتابه العين حيث بدأ بما وُضع من الألفاظ على أصلين، يذكر مُستعملها ومُهمَلها، ثم يُقلب أصواتها حتى يأتي على آخرها، وينتقل لما بعدها ويمكن توضيح ذلك بالرسم الآتي:



الشكل (أ)

يكاد موروثنا العربي في الدرس المعجمي تفيض به المكتبات ذوات العدد، لم يكن ذلك رمية من غير رام، بل إن الدرس قد مر بمراحل تعد أهم من غيرها، لو تتبعناها لانقطع حبل الغموض الذي يلتف حول عنق هذا الدرس، ويكاد يذهب به جملة، هذا التتبع يحتاج بحثا مستقلا، قد تمتد الصفحات بصاحبه إلى المجلد أو المجلدين. وأما ما سأقف عليه في هذا المبحث، فسيجלו البصر قليلا لبعض الخاطبين حبط زرقاء اليمامة لا حبط العشواء؛ إذ ما زلت أعتقد أن كل الباحثين أو جلهم -على الأقل- يرى جيدا كم أثقل هذا الدرس بفرضيات، ونظريات، واحتمالات لم يعرفها المعجميون الأوائل، وقد تركوا ذلك الموروث الذي حدثك عنه صدر المبحث آنفا، وهؤلاء العارفون لم يتعدوا نظيرهم ذاك.

فلنعد بالزمن قليلا إلى نشأة العلوم عند العرب -الخاصة بهم- والتي كانت بعد ظهور الإسلام (منصوري، ٢٠٢١)، ثم إلى زمن اختلاط العرب بالأعاجم لأداء المناسك أو لطلب العلم، هذا الاختلاط الذي جعل لغة العرب مهددة بالاعتلال أو الزوال كان الدافع أئمة اللغة إلى إنشاء درس يحفظها وكتب تجمعها، فلو أننا سلمنا أن الخليل -رحمه الله- أول من جمع في عينه ألفاظ العربية، ونظر إلى معانيها لقلنا إن الأمر تأخر كثيرا؛ إذ الحيز الزمني الذي يجب أن يكون مهذا لأول عمل يجمع اللغة العربية هو القرن المحصور بين قيام الدولة الأموية وسقوطها؛ لاتساع الدولة، واختلاط العرب بغيرهم إما في جزيرتهم، وإما خارجها.

وقد نقل القفطي في إنباه الرواة أن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف (القفطي، ٢٠٠٩)، ووفاته كانت سنة أربع وخمسين ومائة (القفطي، ٢٠٠٩)، فلو قدرنا أن مثل هذه الكتب يحتاج عشرين سنة حتى يُجمع، فقد بدأ جمعها بين أربع وعشرين وأربع وثلاثين، وهذا حيز معقول إلا أني أظن أن هناك من سبقه إلى هذا الفضل؛ إذ عادة جمع اللغة عن الأعراب كانت سائرة بين العلماء قبل أبي عمرو وبعده، فهذا الكسائي مثلا قد أنفذ خمس عشرة قتيبة حبر في الكتابة عن العرب (القفطي، ٢٠٠٩). وأما الذين سبقوا أبا عمرو فقد ذكر ياقوت الحموي أن نصر بن عاصم الليثي كان له كتاب في العربية، وقد توفي سنة تسع وثمانين (الحموي، ١٩٩٣).

تعد المرحلة التي أسعى إلى إثباتها سابقة للخليل، فهي مرحلة التمهيد أو الإرهاص لإنتاج معجمي يمكن القول إنه بدأ متكاملا على غير عادة الخطوة الأولى التي لا بد لها من تعثر أو سقوط، ثم تأتي من بعدها المراحل تباعا.

١. إشراق المعجم العربي: هذه مرحلة تربع على عرشها الخليل بكتابه العين، وكل من جاء بعده ولم يخرج

عن نمطه في التأليف، فهو تبع له، داخل في هذه المرحلة ولو انتهى من تأليف معجمه أمس، وبيان ذلك أن المعاجم كلها لا تختلف إلا في ترتيب مداخلها؛ فمنها من اعتمد الترتيب الصوتي، أو الألف بائي، أو التفقيية، قد تختلف في حجم المادة، أما الكتب والغرض منها فواحد، وقد تدخل في هذه المرحلة حتى المعاجم الحديثة التي اعتمدت الصور في شرحها للألفاظ، فهي لم تصنع شيئا لم يصنعه الخليل.

ومن أمثلة ذلك: السَّمُوم، قال الجوهري: "والحرور الريح الحارة وهي بالليل كالسموم بالنهار" (الجوهري، ١٩٨٧)، وقال ابن فارس: "والسموم الريح الحارة" (فارس، ١٩٧٩)، وقال الزمخشري: "ولفحته السموم وأصابه

من الحر لفتح" (الزنجشيري، ١٩٩٨)، وقال الصغاني: " الهَيْفُ السموم، وقبل ذلك قال: الهيف الريح الحارة" (الصغاني، ١٩٨١).

٢. **معجم المعاني:** في هذه المرحلة انطلق المعجميون من المعنى الذي انتهى إليه المعجميون في المثال السابق، أو انطلقوا من الحقل الدلالي لمعنى ما ليضموا إليه كل الألفاظ الدالة عليه، ومن ذلك كتب أبي نصر الباهلي أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: كتاب الشجر والنبات، كتاب اللبأ واللبن، كتاب الإبل، كتاب الزرع والنخل، كتاب الخيل، كتاب الطير... (الحموي، ١٩٩٣)

ولعل العمل الجامع لمعنى معجم في هذه المرحلة كتاب المخصص لابن سيده، فلم يكتف بباب دون آخر، بل جمع في كتابه كلما كان مفردا قبله، وقد قال في مقدمته: " فاشترأيت نفسي عند ذلك إلى أن أجمع كتابا مشتملا على جميع ما سقط إليّ من اللغة إلا ما لا بال به" (سيده، ٢٠٠٥).

وقد بدأه بكتاب خلق الإنسان، وذكر ما يتعلق به من أبواب؛ كباب الحمل والولادة، وباب الرضاع والفظام... (سيده، ٢٠٠٥)

٣. **المعجم المنظوم:** في هذه المحطة المخالفة تماما لما سبق انتبه أرباب الصناعة إلى أن النظم قد يكون إطارا ضامًا للمعجم العربي، أو لجزء منه على الأقل، ومن ذلك نظم المقصور والممدود لابن مالك الأندلسي، ومن قوله:

ورمت جدا ما إن يدوم جداؤه

وسيان فقر في الثرى وثراء (مالك، ٢٠٠٦)

وكتابه الإعلام بمثلث الكلام ومنه قوله:

تثليث نون يونس استباننا والسين من يوسف مع سفيانا

وتلثوا سرعان مع وشكنا وسرع المعنى مع استعجاب (مالك، ١٣٢٩)

وقد يجوز إدراج نظم ابن المرحل المالكي في هذه المحطة المعجمية مع أن نظمه لم يتعد فصيح ثعلب، ومن ذلك قوله:

وجلس الإنسان وَسَطَ القوم أي بينهم ولم يخف من لوم

وَوَسَطَ الدار جثا وجثما وَوَسَطَ الرأس كذاك احتجما (المرحل، د ت)

٤. **المعجم الشارح:** وقد يبدو هذا أول نظرة إليه كمعجم المرحلة الأولى، إلا أنه لمن تأمله مخالف مستقل؛ إذ اعتمد المعاجم السابقة كمتن أصل، يضيف عليه ويحذف، ويقبل ويرد، ويشرح الغامض منه، وهذا ما جعله يمتاز عن معجم الخليل.

ولعلي أكتفي في الكشف عن هذه المحطة بما خطه الزبيدي في مقدمة تاجه، واصفا لإنتاجه، ولصنعة من كانوا المنار في سبيله.

وأبدأ بوصفه عمله حيث قال: "... فلما آنتت من تناهي فاقة الأفاضل إلى استكشاف غوامضه... قرعت ظنوب اجتهادي واستسعيت يعبوب اعتنائي في وضع شرح عليه ممزوج العبارة، جامع لمواده بالتصريح في بعض وفي البعض بالإشارة، واف ببيان ما اختلف من نسخه، والتصويب بما صح منها من صحيح الأصول... والكشف عن معانيه، والإنباه عن مضاربه وماأخذه بصريح النقول..." (الزبيدي، ١٩٦٥)

وقد أشار إلى من سبقه إلى مثل هذا؛ فذكر المحب ابن الشحنة، وشرحه على مقدمة القاموس (الزبيدي، ١٩٦٥)، وذكر شرحا لعبد الرؤوف المناوي يسمى القول المأنوس (الزبيدي، ١٩٦٥)، ثم ذكر شرحا لعبد الله بن شرف الدين الحسيني يسمى كسر الناموس (الزبيدي، ١٩٦٥)، ثم شرحا لمحمد بن يحيى القرائي يسمى بحجة النفوس (الزبيدي، ١٩٦٥)، وفيما أحاط بالعنق من القلادة كفاية، وفي هذا القدر للتمثيل غاية.

وسأدخل في هذه المرحلة كتب الشروح، وأخص شروح الدواوين والأشعار، أو شروح الرسائل الأدبية، التي تعتمد إلى الألفاظ فتبرز معانيها، كشرح ديواني النابغة والأعشى، أو جرير والفرزدق، أو أبي تمام والبحترى، أو كشرح مقامات الحريري، أو كشرح أبيات سيويه وشرح أبيات الجمل، ومثال ذلك قول ابن السيرافي في شرح بيت لبشر ابن أبي خازم الأسدي:

فأما تميم تميم بن مر فألفاهم القوم روبي نياما

... وألفاهم وجدهم، والروبي جمع رائب وهو الخائر النفس، وقيل الذي قد نعس. (السيرافي، ٢٠١٣)

ومنه كذلك قول أبي جعفر اللبلي في شرح بيت للفرزدق:

يا مرو إن مطيتي محبوسة ترجو الحباء وربها لم ييأس

... المطية الناقية، وسميت مطية لأنها يُمطى بها في السير، أي يُمد بها، أو لأنها يُركب مطاها أي

ظهرها... والمحبوسة الممنوعة من التصرف... وقوله ترجو أي تأمل... وقوله الحباء العطية... (اللبلي، ٢٠١٦)

وإنما أدرجت كتب الشروح مع المعاجم الشارحة لأنها معاجم مختصة، بل لأن الناظر فيها يُفيد لغة قد يُفيد مثلها إذا هو نظر في المعاجم المختصة.

إشارة:

المحطات التي ذكرت لا يُفهم منها أنها متباينة، يتميز بعضها عن بعض، متى بلغت هذه الغاية انطلقت تلك كما يحدث في سباق التابع بل هي متداخلة إن شاء ومادة، قد لُز بعضها ببعض في قرن واحد، فابن لبون وبازل.

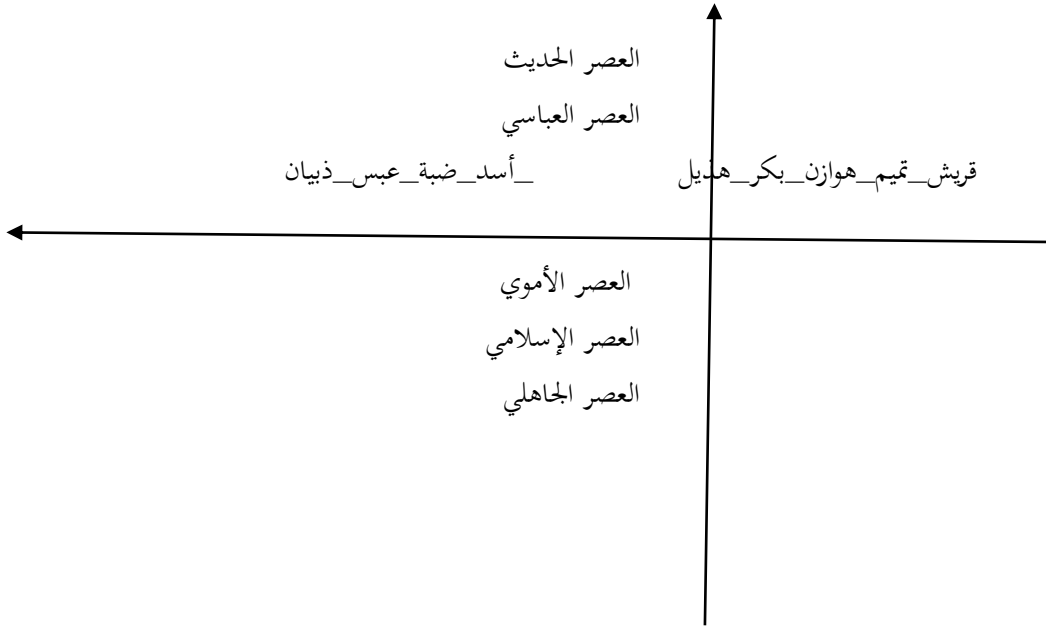
IV. المعجم الذهني والمعجم المؤلف:

للتفريق بين المعجمين لا بد من إحاطة بما يتعلق بالمعجمية نظيرا وتطبيقا، والورقة البحثية - كما هو معلوم - لم تُجعل للشمولية بقدر ما جعلت لتسليط الضوء على المادة المدروسة.

المعجم الذهني هو ذلك الكم اللغوي، أو المخزون الذي تشتمل عليه ذاكرة الفرد أو الجماعة اللغوية، وأما المعجم المؤلف فهو المدونة المعجمية، أو اللغة النازحة من الذهن إلى الورق، فالأول معجم حي سيفني، والآخر معجم ميت سيبقي، والفرق بين الأمرين كالفرق بين اللغة والكلام تماما.

وسأركز على بعض التصورات التي استقرت في ذهني وأنا أعالج هذه الورقة، وسأطرحها كآلآتي:

١. **المعجم الذهني الجمعي:** هذا معجم تُخزنه الجماعة في ذهنها وذاكرتها، ولن أبعد الرمية إذا قلت هذا ما أراد ابن دريد معناه لما سمي معجمه الجمهرة، وهذا المعجم قد يكون أفقيا أو عموديا بالنظر إلى الزمن من جهة، وإلى الجغرافيا اللغوية من جهة أخرى، والرسم التالي يوضحه



الشكل (ب)

وهذا المعجم أثبت من نظيره الذي سيأتي ذكره.

والجماعة اللغوية قد يحدث لها اتفاق مع جماعة أخرى لا يصل إلى حد التطابق، بل لا بد من خلاف يبرر التمايز، وإلا ما الفائدة من ذكر جماعتين، كما قد يحدث لهما افتراق لا يصل إلى حد التباين، أو ربما وصل كالذي بين العربية وغيرها مثلا.

ومثال الاتفاق ظاهر في كتاب الله؛ إذ كان ينزل على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في مكة وهو بين عرب عدنانية فيفهمونه، ثم نزل عليه في المدينة بين عرب قحطانية ففهموه ولا إشكال.

وأما الاختلاف فأوضح من أن أمثل له.

وهذا المعجم الذهني الجمعي إنما استبد عند العرب بلغتهم لاعتمادهم الرواية في حفظ تراثهم وثقافتهم.

٢. **المعجم الذهني الفردي:** هذا وإن كان خادما للمعجم الذهني الجمعي، إلا أنه أقل ثباتا على اللغة، أو

أن اللغة لا تركز إليه حاملا، ولا تطمئن عليه حافظا، ولنقل إن هذا المعجم هو الذي يورد اللغة الموارد. لقد جعل ابن جني بابا في الخصائص سماه: العربي الفصيح ينتقل لسانه (جني، د ت)، مدار الحديث فيه أن العربي ينتقل لسانه من لغة فصيحة إلى لغة أخرى، فإن كانت فصيحاً، فقد انتقل من جماعة لغوية إلى جماعة أخرى، وهذا لا بأس عليه ولا على معجمه الذهني مع شرط الإتقان للغة المنتقل إليها، والممارسة المرضي عنها من الجماعة اللغوية الجديدة (هذان الشرطان لم يذكرهما ابن جني في كتابه وإنما أضفتها على ما ذكر لما مر معي من اختلال لسان الفردق وهو تميمي إذا أراد التحدث بلسان حجازي)، وقد ينتقل إلى لغة فاسدة، فهذا يُلفظ معجمه الذهني ولا يُعول عليه.

وهذان المعجمان تؤثر فيهما العادات، والأعراف، والمواقف، والحالات النفسية... وهما معجمان غير قارئين، يتغيران عموديا وأفقيا تبعا للرسم المشار إليه آنفا، خاضعان للتأثيرات المذكورة. وهما مرحلة سابقة وموازية ثم لاحقة للمعجم المؤلف.

٣. **المعجم المؤلف:** هو دار المحجرة للمعجم الذهني، أو هو المدونة الورقية أو الإلكترونية حديثا، فهو وإن

بدا مستقلا عن المعجم الذهني إلا أنه غير كذلك، بل هو معجم ذهني فردي يأخذ من معجم ذهني جمعي ليصبهما في معجم مؤلف.

ولا يخفى حجم الأخطاء التي قد ترد على اللغة من مثل هذا الصنيع، وهذا ما يفسر جملا من طعن اللاحق في صناعة السابق، لا سيما إذا كان هذا اللاحق موضوعيا بعيدا عن التعصب، ومن ذلك ما وصف ثعلب به كتاب العين للخليل لما سُئل عنه، فقال: هو ملآن غددا (الحموي، ١٩٩٣)... وأراد في جراب العين حروفا كثيرة قد أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيح والتغيير، فهي تضر حافظها كما تضر الغدد آكلها (الحموي، ١٩٩٣). فإن قيل كوفي يتهم بصريا، فقد قال ابن عصفور: " وكثيرا ما يأتي في كتاب العين ما لا ينبغي أن يُؤخذ به لكثرة اضطرابه وخلله" (عصفور، ١٩٩٦).

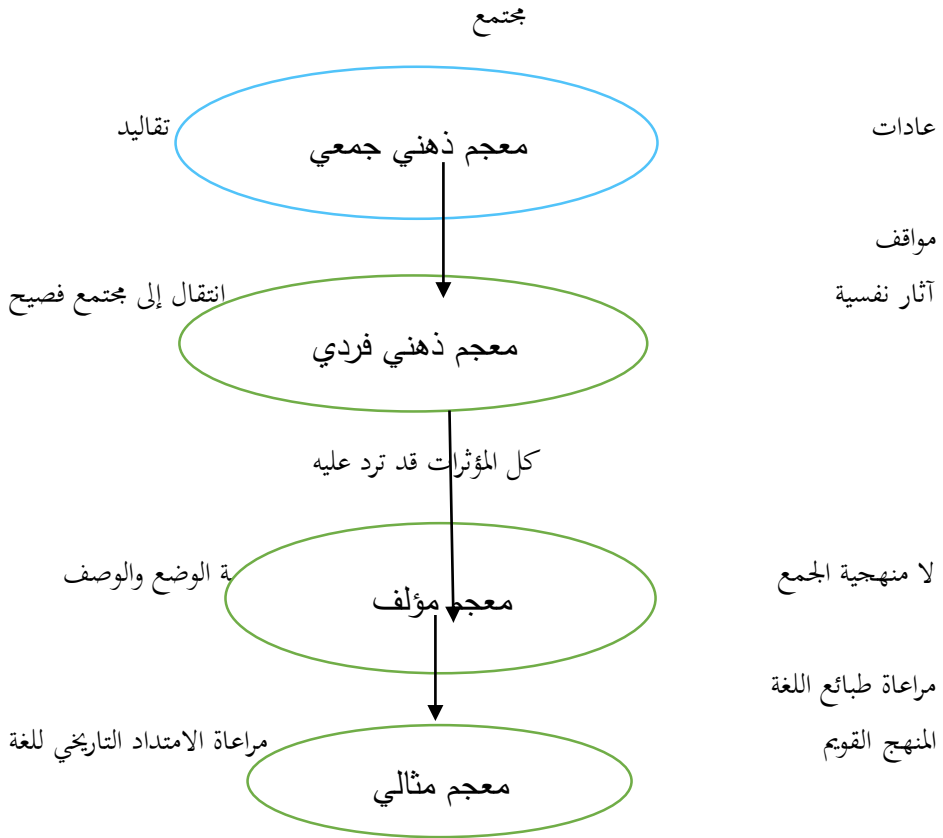
فإذا سلمنا بهذا فإنما مرجع ذلك إلى التفرد بصناعة المعجم، ولا يخفى ما في صناعة الفرد من خلل، ولهذا صار يُعتمد حديثا في صناعة المعاجم على المؤسسات والجماعات.

٤. **حلقة الوصل بين المعجمين:** غير مُجدِّ حديثاً عن صلة بين المعجم الذهني والمعجم المؤلف بعد اندثار

زمن الفصاحة؛ هذا أول ما ينتقده المعارض على هذا المبحث ولكن غابتنا صناعة معجم يحفظ اللغة ويفي بالغرض المنشود منه، والذي بين أيدينا معاجم مؤلفة من العين إلى ما بعد التاج، فكيف لنا والحال هذه أن نحتدي إلى الرباط الرقيق بين المعجم الذهني والمعجم المؤلف لنصل إلى معجم مثالي؟

ننظر هنا إلى سلوك اللغة وطبيعتها البشرية، وسلوكها تابع لسلوك الناطق بها، وهي بين مطاوعته وعصيانه تمارس عليه ما يمارس عليها.

وقد مر معنا أن أبا الفتح يرى انتقال لسان العربي الفصيح إلى لسان فصيح آخر، أو إلى لسان فاسد، وفي الانتقالين ما يوحي بتطور اللغة واجتماعيتها، وهما مؤثران جدا على مادتها، كما جعل بابا آخر في العربي يسمع لغة غيره أيراعيها ويعتمدها أم يلغنها وي طرح حكمها؟ (جني، الخصائص، د ت) وتقضي هذه الطبائع اللغوية يُجلبها لنا ألفاظا ومعاني، حتى نصل بما بعد ذلك إلى معجم مثالي والشكل الآتي يوضح ذلك



V. إشكالات تواجه الصناعة المعجمية:

وأنا أوصد باب هذه الورقة برفق، لا بد من تذكير أن الحديث فيها إنما هو عن القاموسية التراثية، وعن امتدادها عبر خيط الزمن إلى يومنا هذا، وأنى لنا الإفادة من عشرات الأسلاف حتى نقيم معجما مثاليا كما ذكرت، أو قريبا من المثالي؟

١. الشكل المعجمي: وفيه إشكالان:

١,١ الشكل الخارجي: وأعني به الحجم؛ إذ كل معجم في موروثنا يضم مئات الأوراق أو الآلاف، وفي ذلك إرهاق للناظر، وإعنات للقارئ، وإعجاز للحافظ.

٢,١ الشكل الداخلي: ويبدأ من المداخل وترتيب المواد فيها؛ إذ بعض الألفاظ تستعصي على الباحثين المختصين بله الطلبة، أعني الذين لا دراية لهم بالتصريف، ومثال ذلك لفظ التقوى، فإذا كان المعجم ألفبائياً فيبحث عنها في باب الواو؛ لأنها من (وقى)، وإن كان معجماً مُقفى فيبحث عنها في باب الياء لأنها من (وقَّي). ثم إشكال في أصوات المواد نفسها الخاضعة لتأثير اللهجات، وقد أشار إلى هذا أنطوان عبده ممثلاً بالأفعال "أُكِّد ووكد، أُرِّخ وورخ، أراق وهراق، أيس وييس" (عبده، ١٩٩١)، ويتفاهم الإشكال إذا أراد أحدهم إرجاع الصوت إلى أصله بغير دراية منه؛ إذ قد يُرجعه إلى غير أصل، ثم يُثبتُه ظناً منه أنه الصواب، قال رمضان عبد التواب: "وإذا كانت اللهجة المصرية تقلب القاف همزة، فإن حرص المتفصحين من أهلها على رد هذه الهمزة إلى أصلها يجر في بعض الأحيان إلى قلب الهمزات الأصلية إلى قاف؛ بسبب الجري وراء الحذقة والتعثر في الكلام، فالكلمات: أرم معنى عض وعلاوة وأصلها حلاة بمعنى الضرب الشديد بالسوط أو العصا، وأمروض بمعنى قصير لاصق بالأرض، هذه الكلمات كلها الهمزة فيها أصلية، ولكن كتاب القصة والمسرحية في مصر يكتبونها في أيامنا هذه: قَرَمَ وعلقة ومقروض، مبالغة في التفصح." (التواب، ١٩٩٧) ويُفضي بنا هذا إلى إشكال آخر.

٢. ظعن الألفاظ وسياحتها: وهذا السفر قد يكون إما أفقياً من جماعة لغوية إلى أخرى، ويحدث فيه ما يحدث من التصرف، وعدم الضبط، والارتباك لعدم قدرة القرشي على ضبط لغة تميم، أو العكس، وإما عمودياً وهو ما يُصطلح عليه بالمعجم التاريخي، وهذا الأخير أشد تفلتاً من سابقه؛ إذ كلما انحدر الزمن إلينا تبادت الألفاظ في جفائها، والمعاني في خفائها.

٣. الكشف عن المادة اللغوية: وهذا من الإشكالات العريضة في معجمنا العربي، فهو بين إيجاز يزيد اللفظ غموضاً، كقول ابن منظور في آء، الآء بوزن العاعة، وتُجمع على آء بوزن عاع، هو شجر معروف (الإفريقي، ٢٠٠٣)، ولم يُكلف نفسه ذكر شكله، أو فصيلته، أو منبته، أو ثمره. وقال كذلك في مادة بئأ، بئأء موضع معروف (التواب، ١٩٩٧)، ولم يُجده كذلك. وبين إطناب يجيد بك عن القصد، والتمثيل له لا ينحصر.

٤. اللانظام: يرى تمام حسان أن النظام منفي عن الظاهرة المعجمية، بخلاف النظام القائم في المستويات: الصوتي والصرفي والنحوي، يقول تمام حسان: "وليس المعجم نظاماً من أنظمة اللغة؛ فهو لا يشتمل على شبكة من العلاقات العضوية والقيم الخلافية، ولا يمكن لمحتوياته أن تقع في جدول يمثل احتباك هذه العلاقات، على نحو ما سترى في أنظمة الأصوات والصرف والنحو" (حسان، ٢٠٠٩).

كما أضاف علة أخرى، وهي إمكان الاستعارة بين لغة ولغة (حسان، ٢٠٠٩)، ثم استدرك أمرا آخر يُعد علة في نظره لنفي النظام، ويرجع إلى الوظيفة الاجتماعية للغة في عمومها (حسان، ٢٠٠٩).

وفي النفس مما ذهب إليه تمام حسان شيء، بل أشياء؛ إذ لا يمكن التسليم به دون نظر، ثم إن المعجم ألفاظ، أي أسماء وأفعال وحروف وأصوات، وكلها داخلية في النظام الصرفي أو النظام الصوتي اللذين أقر بهما، وتقابل الألفاظ أنصوص كاشفة شارحة، وهي داخلية في النظام النحوي كذلك، وإنما انتفى النظام لازدحام هذه الأنظمة، ثم لما عومل المعجم معاملة اللغة التي في الذهن؛ إذ لا يمكن معالجتها إلا إذا أبرزها اللسان على شكل كلام.

ولو أننا أخذنا معجم العين مثلا، وحصرنا ألفاظه، ثم جعلناها في أبواب على غير ما جعلها الخليل؛ كأن نجعل الباب الأول للأصوات والتعريف بها، ونتركه على ترتيب الخليل ترتيبا صوتيا، ثم نجعل الباب الثاني للأسماء ونرتبه ألفبائيا، ونجعل الباب الثالث للأفعال، ونرتبه ترتيبا عينيا، أي يُراعى عين الفعل في الترتيب لأنها مناط التصريف فيه وموضع البحث، ثم نجعل الباب الأخير للحروف، ونرتبها ترتيب قافية، مع مراعاة ما يتعلق بكل باب.

فإذا استوت لنا هذه الصناعة، هل يمكن إثبات النظام للظاهرة المعجمية؟

VI. خاتمة:

- إذ أدنت شمس الورقة بينها، وحان وقت حِينها، أقول إنّ القاموسية التراثية من عين الخليل إلى آخر معجم سار على نمطه، كانت خير خادم للغة العربية، وأوفى حارس قام على بابها، يذود عن ألفاظها ويُجليها بمعانيها التي كاد الزمان يفصل بينهما، وإني أخلص أهم ما وصلت إليه من نتائج في النقاط الآتية:
- القاموسية التراثية لا تخلو من عثرات قد تجعل العمل ناقصا، إلا أنه غير حائد عن الغاية المنشودة.
 - التنظير للظاهرة المعجمية قد يُثقل كاهلها بلا جدوى، أو قد يُرهق الباحث لسنوات عديدة، أو قد يُنتج لنا معجما كامل الأركان (عند المنظرين على الأقل).
 - المعجم العربي تحكمت في صناعته الكثير من المؤثرات، هذه الأخيرة هي التي أهدت له الخلل الذي تسرب إليه.
 - من أراد إنشاء معجم مثالي، فعليه الإحاطة بكل المؤثرات المذكورة، ثم الإحاطة بكل المعاجم المصنوعة، واعتماد أحسنها واطّراح تلك.
 - إن معجم العين على علو كعب الصانع، وجودة الصنعة إلا أنه ليس أول صناعة معجمية.
 - صناعة المعجم صناعة تنوء بالعصبة أولى القوة، فإذا أردنا بلوغ الغاية فيها، فعلينا تجييش المؤسسات، والمجامع اللغوية، والدول كذلك؛ فإن الفرد في هذه الصناعة قد ولى الأدبار، وعجزه أظهر لذي عينين من النهار.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد بن حنبل، المسند، تح شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠١م.
- أنطوان عبّود، مصطلح المعجمية العربية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩١م.

- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط ٦، ٢٠٠٩م.
- ابن جنّي، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط ٤، د ت.
- المنصف، تح محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٩م.
- الجوهري أبو نصر، الصحاح، تح أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٩٨٧م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح مهدي المحزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ٣، ١٩٩٧م، ١٢٣.
- الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨م.
- ابن سيده، المخصص، تح عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٥م.
- ابن السيرافي، شرح أبيات سيبويه، تح محمد علي سلطاني، دار العصماء، دمشق، سوريا، ط ١، ٢٠١٣م.
- الصغاني، العباب الزاخر، تح محمد حسن آل ياسين، دار الرشيد، بغداد، العراق، د ط، ١٩٨١م.
- عباس الصوري، في الممارسة المعجمية للمتن اللغوي، مجلة اللسان العربي، العدد ٤٥، ١٩٩٨م.
- عبد الجليل منصور، اختلاف روايات الشواهد وأثرها على القاعدة النحوية، دار الرياحين، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠٢١م.
- ابن عصفور الإشبيلي، الممتع الكبير في التصريف، تح فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٦م.
- ابن فارس، مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، ١٩٧٩م.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح مجدي فتحى السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د ط، د ت.
- القفطي، إنباه الرواة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط، ٢٠٠٩م.
- اللبلي أبو جعفر، وشي الحلل في شرح أبيات الجمل، تح احمد الجندي، دار الضياء، الكويت، الكويت، ط ١، ٢٠١٦م.
- ابن مالك الأندلسي، الإعلام بمثلث الكلام، مطبعة الجمالية، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٢٩هـ.
- شرح نظم المقصور والممدود، تح عمار بن خميسي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٦م.

- محمد عبد العزيز عبد الدائم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠٠٦م.
 - المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد، الكويت، الكويت، د ط، ١٩٦٥م.
 - ابن المرحل المالكي، نظمه، مكتبة الرشاد، نواكشوط، موريتانيا، د ط، د ت.
 - ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط ٣، ٢٠٠٤م.
 - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٣م.
-